لهذا كان بين شوبنهور وكثير من الشبان القارئين عندنا نسب قريب فى أوائل هذا القرن العشرين . ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع تارة ومن أثر التشاغل تارات ، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذى لا محيص عنه مع تعاقب الأيام وتعدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان فى القول ما يشبه الفكاهة والدعابة ؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجاراة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب . ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته ، فلتكن هذه من دعابات الزمن معه ، ومن وفاء الزمن له فى قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات ، وهى مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره . فمن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه ، وعرف مكان الصدق فى المطابقة بين الوحى ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها . ومجمل تلك الفلسفة فى سطرين : أن الإرادة هى صاحبة السلطان فى أعمال الأحياء وحركات الحياة ؛ وأن الإنسان يلتمس الأسباب والبراهين لأنه يريد ، ولا يريد لأنه يلتمس الأسباب والبراهين ؛ وأن الفكرة تلغى الإرادة وتشل الحركة وتنتهى بالحياة إلى سكون كسكون « النرفانا » عند الهنود ؛ وأن الإرادة تتعلق بالفردية ، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة فى الكون كله . ومن ثم يجئ الفن والدين والعبقرية على رأس الفكرة ومن وراء الإرادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات ، فالمصير الذى يطوينا جميعاً ويطوى أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفى مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين المرض والجوهر فى هذه المطابقة . وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده فى الثانى والعشرين من شهر فبراير أن نزجى إلى ذكراه تحية المودة والإكبار ، وأن نهتف به : مرحى ! ومرحباً صديقنا القديم من جديد !

عباس محمود العقاد

غريب الهـــوى

في عيـــد القمر

للدكتور زكى مبارك

أتذكرُ يا قلبى ؟

أتذكرُ أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (العيد الكبير) ، وأن أهل سنتريس يقولون : (عيد القمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟

ليت شعرى أظلّ أهلى وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لى أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبى

أما أهلى فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديهم من وجه أبى ؛ وكان لك أهل يا قلبى ، ولكن أخبارهم غابت عنى منذ أزمان . فان كانت عندك أخبار فحدثنى عنهم ، فما أحب لك أن تعيش فى دنياك عيش الغريب !

لا تكتم عنى شيئاً يا قلبى ، فما لك فى الدنيا آس سواى .

أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس فى هذا المساء ؟ فما لقينى أحد من أعضاء المؤتمر الطبى إلا سألنى عن صحة ليلى . وما أذكر أبداً أن أحداً سألنى عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيعة المقتول ! والويل كل الويل للمغلوب

* * *

إن ليالى الأعياد ترجمنى إليك يا قلبى

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفى أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة فى حمل المصابيح فى الليلة المقمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً فى هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فانى أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر بما يُدفن فيه من سرائر القلوب !

حدثني أين دفنتَ أحلامك ، فاني أعرف أنك قليل البخت في دنياك . ولو كان لك بخت لما جاز أن تبيت مشرّد الأماني في ليلة عيد

قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أتذكر ما صنعتُ في سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعير الحب في القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد : دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان اسمها من أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمتْ أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ، واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت : لا بأس ، فهي هدنة يستجمّ فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون حين يرجع إلى القاهرة . ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن « عيون المها بين الرصافة والجسر » وقد اتخذت لك فتركتك ترود مراتع الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة وأسرتك عيون المها بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقد كان يعز عليّ أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمى فتصيب ، ولكني ما كنت أحب أن أحملك جريحاً محطّماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبث في تضميد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتقى الله في الناس ؟ من كان يظن أن ينعدم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتهاش قلب غريب لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم رِصحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب ممزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

* * *

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تَغْفُ عيناي . أكذلك تكون ليالي الأعياد ، يا بغداد ؟ ليتني أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا النوم من جفوني ! ليتني أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم في غفوات الليل !

بغداد !

خذي من نومي ما تشائين ، بل خذي من دمي ما تشائين ، فلن أنسى ما حييت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون : عيون المها ، على قتلي ؛ فان من الشرف أن يكون المرء قتيل المَها في بغداد

إي والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناي . فهل تعرف الظباء التي كانت تعترض طريق لتصرعني أنني لا أزال بين الأحياء ؟

أنا أدعوها إلى مناضلتي مرة ثانية ، وموعدنا بَهْو أمانة العاصمة يوم الأربعاء

* * *

أحبابي في مصر الجديدة والزمالك !

ناموا هانئين وادعين ، وانهبوا ما شئتم من أحلام الأماني ، فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق

أحبابي في بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يَعْنِ أحداً غيري حين قال :

وكل محبٍّ قد سلا ، غير أنني غريبُ الهوى ، يا ويح كل غريب !

زكي مبارك

اطلب مؤلفات

الأستاذ النشاشيبي

وكتابه

الإسلام الصحيح

من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكي (باب اللوق)

ومن : المكتبات العربية المشهورة